الأهواء في سميائيات كريماص*

س– ب

يُعد الهوى جزءا من كينونة الإنسان وجزءا من أحكامه وميولاته وتصنيفاته. وباعتباره كذلك، كان دائما محط ذم وتحذير وشبهة. فلقد رأى فيه البعض "جنونا مناهضا للعقل " (كانط)، واعتبره البعض الآخر "انصياع الروح للجسد " (ديكارت)، واعتبره فريق ثالث حصيلة لفوضى تصيب الحواس وتقود العقل إلى الانهيار والتلاشي أمام رغبات جسد تستهويه الشهوات وتقوده إلى المعاصي، كما حذرت منه الديانات جميعها.

لم تلتفت السميائيات إلى هذه الأحكام التصنيفية، بل حاولت التعرف على العلامات الدالة على الأهواء، وذلك بالاهتمام "بآثارها المعنوية كما تتحقق في الخطاب". لذلك، لا يتعلق الأمر في سياق السميائيات عامة، بمحاولة تقديم صنافة شاملة لسلسة من الأهواء كما يفعل ذلك الفلاسفة أو علماء النفس وغيرهم، ولا يتعلق أيضا بإصدار جملة من الأحكام الاجتماعية/ الأخلاقية التي تُدين هذا الهوى وتُثمن ذاك ضمن استقطابات من طبائع مختلفة؛ فهذه أمور لا طائل من ورائها، ولا يمكن أن تقدم إضافة نوعية قد تقودنا إلى فهم أفضل لهذا السلوك الهووي أو ذاك. إن الأمر على العكس من ذلك: "فهوى" السميائيات هوى تركيبي دلالي لا يلتفت إلا للممكنات الكامنة التي يمكن أن تتجسد من خلال وجوده الأدنى كما يتحقق في القواميس. لذلك، فهي لا تكترث لما تقوله الأخلاق إلا من حيث المسارات المحتملة التي يمكن أن تولدها الإدانة أو التثمين، ولا تلتفت إلى ما يقوله الدين وينصح به إلا من حيث إمكانات تحويل "النهي" و"الترهيب" و"الترغيب" إلى برامج سردية مجسدة في حكاية.

استنادا إلى هذا المبدأ المركزي، يمكن التعامل مع الهوى ودراسته باعتبار إمكانات تحققه لا باعتباره "مضمونا" كليا يحمل معناه في ذاته، وهو ما يعني الكشف عن المخزون الانفعالي

المودع في النفس كشكل احتمالي لسلوك ممكن، دون الاكتراث لتصنيفاته الاجتماعية السلبية منها والإيجابية. وكما سنرى ذلك لاحقا، فإن الهوى لا يتشكل بصفته تلك إلا عندما تخضع الكتلة الانفعالية (الاستهواء) إلى انشطار أول يُعد في واقع الأمر التباشير الأولى التي من خلالها يصبح الفصل بين حالات الأهواء أمرا ممكنا.

إن الهوى ليس الكلية الانفعالية، إنه أحد أشكال وجودها، أي ما يترتب عن انشطار الذات لحظة اصطدامها بالعالم، ولكنه يُعد من جهة ثانية، من خلال أشكال التحقق هاته، رغبة في العودة إلى هذه الكتلة والانصهار من جديد في وحدة مطلقة، كما يمكن أن توحي بذلك تلك الرغبات التي تستبد بنا وتدفعنا إلى محاولة الانصهار في طبيعة ممتدة إلى ما لانهاية: عندما يود العاشق "الذوبان" في محبوبه، أو عندما "يتماهى" البخيل مع المال، فتصبح حافظة النقود في ذاتها موضوعا، أو يطلق الغضوب العنان لجسده "يقول" ما فشلت الكلمات في التعبير عنه. "فهل العالم واحد، يفيض من امتلائه، أي بنية مزيج قابل للانفجار، أم هو كلية عمائية تهفو إلى الوحدة " ؟ ذاك هو سؤال البداية وربما النهاية كما وضعه كريماص.

وكما كان عليه الأمر في ميدان سميائيات الفعل، حيث تشكل البنية الدلالية الأولية منطلقا أساسا لإسقاط حالات الفعل المشخص ضمن مسار توليدي هو الرابط بين المجرد والمتحقق، فإن الأمر، في حالة الهوى، يفترض أيضا وجود حالة لا يتحدد الكائن البشري ضمنها إلا من خلال "حس" مطلق موجود في ممكناته الانفعالية، لا استنادا إلى ما يمكن أن يتولد عنه. وهي حالة شبيهة بحالة كل الكائنات غير العاقلة التي تستعين على قضاء حاجتها بسلوك لحظي لا يستحضر ماضيا ولا يحيط بحاضر ولا يستشرف مستقبلا، أي أنها عاجزة عن إسقاط "مآل" هو حاصل الاستقطابات اللاحقة وغايتها.

إن هذا الحس ليس سوى "نوعية خالدة" لا تتأثر بالزمان ولا تكترث للمكان، لأنها موجودة خارجهما، أي منفصلة عن كل السياقات المحتملة، إنها الإمكان فقط بتعبير بورس، إنها الحس قبل أن يكون هناك وعي بالحس (غياب القصدية). بعبارة أخرى، فإن الجسد الإنساني يمْثل في العالم من خلال حالة نبوتية (شبيهة بالنبات) تشكو من غياب "حجم إنساني" هو منطلق الدلالة ومنتهاها في الوقت ذاته. فلا أمل في الإمساك بهذا الحجم، قبل ظهور المنفصل

الذي به يتميز هذا النوع من الإحساس عن غيره. وهذا أمر مؤكد، "فالإحساس هو نوع من الوعي لا يستدعي أي تحليل أو أية مقارنة ولا أية سيرورة، كما لا يتجسد كليا أو جزئيا في فعل يتميز من خلاله هذا الوعي عن ذاك"(1). لذلك "فإن فكرة الأول المطلق ترتكز على أساس معرفي يقضي بأنه لا يمكن أن نفكر في هذا الأول من خلال أجزائه"(2). إن الكل متصل غير دال، لذلك تنتفي ضمنه العلامات وتختفي ظلالها الدلالية أيضا.

وهذا معناه، بعبارة أخرى،" أن وضع الهوى فيما هو أبعد من انبثاق الدلالة، وبشكل سابق على كل تمفصل سميائي، في شكل "إحساس" خالص، شبيه بمحاولة الإمساك بالدرجة الصفر للحيوي، أي "الظاهر الأدنى للكينونة"(3). وهي حالة مفترضة فحسب، فالحسي متصل وغير دال، ولكنها أساسية للاستقطابات اللاحقة التي تجسد الهوى ضمن وضعية بعينها. فإدراج مبدأ التوتر الداخلي معناه تحويل الاستهواء إلى قوة موجهة وقابلة للاستقطاب، وقادرة، تبعا لذلك، على التحول إلى جهات خاصة بالكينونة. فقبل أن تخضع الكتلة الاستهوائية إلى التحريك، فإنها لم تكن سوى كيان مستقل يحضر في الوجود من خلال كليته لا من خلال أجزائه.

فما فحوى الاستهواء phorie في السياق السميائي؟ إنه مقولة مركزية في كل البناء النظري الخاص بالأهواء، ودون تحديد موقعها ضمن هذا البناء، فإننا لن نستوعب الأسس التي انبنت عليها السميائيات الخاصة "بحالات النفس". إن الاستهواء لا يختلف كثيرا عن المستوى السميائي السابق عن التجلي الخطابي. فهذا المستوى يتضمن أشكال الوجود المجردة للأفعال التي ستتحقق في مستوى سطحي تدركه العين بشكل مباشر. إنه بذلك رديف لمقولات "التوترية" و"التوتير" و"المآل" وكل العناصر الدالة على سيرورة تقود، ضمن مسار توليدي، من المتصل إلى حالات الانفصال التي تمنح وحدها الهوى فرصة التحقق في نسخة خاصة به. إنه بذلك قريب من فكرة "الحس الأدنى" بتعبير كريماص. إنه حالة مفترضة في الوجود الإنساني، فالوعي بمكونات هذا الحس نفي له، ومع ذلك يجب أن نأخذه في الاعتبار لفهم التطورات اللاحقة الخاصة باشتغال الأهواء.

إلا أنه يختلف عن هذا "الحس" من حيث كونه دالا على ديناميكية داخلية تدفع إلى... وتقود إلى...إنه يحمل في ذاته إمكانات استقطاب أولي يحدد كريماص في "الصالح" و"الطالح"، أي ما يدل على كل ما هو إيجابي في الوجود الإنساني من جهة، وعلى كل ما هو سلبي فيه من جهة ثانية. إنه انشطار أولي يفصل بين وجهين متقابلين لحس واحد. أو هو، بعبارة أخرى، قوة كامنة، حركة تتحدد من خلال انغلاق وانفتاح في علاقتها باستثارة محسوسة ودالة (إن الجسد جزء من هذه الحركة لأن الانفعال يتجسد أول ما يتجسد من خلاله). ولا يمكن فهم هذه الحركة إلا من خلال مكونيها السابقين اللذين يوجهان هذه الحركة إلى "الخارج"، أي إلى ما يكشف عن وجود قوة انفعالية كامنة .

وللمزيد من التوضيح يمكن القول، إن الاستهواء هو المادة التي تتشكل منها الأهواء، فبدون هذا الاستهواء لا يمكن الحديث عن أهواء، كما أن الأهواء هي وحدها ما يشير إلى وجود مادة سابقة على تحققها الفعلي. فكما أن المحور الدلالي الذي يعبر عن وعي مفهومي يبشر بفعل مباشر (التقابل علم (م)جهل مثلا الذي يتحدد من خلال مضمون كلي نطلق عليه "معرفة")، هو المنطلق نحو نشر مجمل الحالات الممكنة المشتقة منه (عالم،جاهل، موسوعة، مثقف، متعلم،متعالم...)، فإن الاستهواء هو القوة الانفعالية الكامنة التي يستند إليها خطاب الأهواء لرسم عوالمه. إنه يذكر "بالعجين" الذي يوضع بين يدي الطفل في بدايات التمدرس لكي يصنع منه أشكالا شتى. فالمادة في هذه الحالة واحدة، ولكن الأشكال المشتقة منها تختلف مع كل صياغة جديدة، فهي التعبير عن قصد أولي يوجد في وعي الطفل لا في المادة التي بين يديه. وتلك هي حالة الاستهواء، فالانفعالات تتشكل وتتلاشى ثم تنتصب من جديد ويستقيم وجودها لتتلاشى ثانية، وهكذا دواليك.

وقد يكون الاستهواء شبيها بالحالة التي يصفها فرويد وهو يحاول تحديد تخوم تجربة نفسية سابقة على كل أشكال المفهمة التي يمكن أن تأتي بها اللغة مثلا. فلقد تحدث عن وجود "منطقة" تفصل بين الذات والعالم يتحدد ضمنها" الداخل" و"الخارج" الإنسانيان من خلال أحاسيس أولية شبيهة بالمثيرات الحسية الغامضة. إنها تشير إلى حالة تماس تشد الذات إلى العالم الخارجي بعيدا عن "التوجيهات" الأولية لأي شكل من أشكال الوعي، بما فيها التصنيفات المقولية التي

يأتي بها التقطيع اللغوي. ولا فاصل في واقع الأمر بين هاتين التجربتين، وبين مقولتي الصالح والطالح المحددتين للاستهواء. ففي الحالتين معا يتعلق الأمر بصياغات أولى للكينونة تتحقق بفضل إسقاط توترية استهوائية، تمثل الشكل الوحيد القابل للضبط.

ومع ذلك، فإن هذه القوة في حاجة إلى تحريك لكي تتخذ شكلا مرئيا، أي في حاجة إلى الانسياب داخل "مآل" (غاية الحركة ومنتهاها وبؤرة التحولات والنمو المتصاعد) هو حاصل الانشطار الذي يقود إلى خلق حالة لاتوازن تمهد الطريق إلى بروز الدلالة، فما يقود إلى الدينامية المسؤولة عن كل سيرورة تدليلية هو الاختلالات لا أشكال التوازن بين القوى. فالتوتير يقود في مرحلة أولى إلى ظهور شبه–ذات وظلال قيمة، أي إلى ممكنات فعل مودع في كائن لم يعرف التكييفات بعد.

إنها ما يشبه "قيمة القيمة" وهو ما يطلق عليه المؤلفان "النظير" valence وهو مقولة مستعارة من الكيمياء وتعني " عدد الذرات المضافة إلى تركيبة جسم"، لكنها دالة هنا في السياق السميائي "على المحددات الانفعالية التي تفرض على الموضوع"(4). بعبارة أخرى، إنها تعني أن القيمة التي تمنح في حالة الهوى إلى الموضوع لا تتحدد من خلال بعدها النفعي، بل من خلال ظلال دلالية أخرى من طبيعة انفعالية. فالمنزل الذي ولدنا فيه وترعرعنا في جنباته يمتلك في واقع الأمر قيمتين: قيمة مادية، أي ثمنه في سوق العقار، وهو ما يشكل المضمون الدلالي المباشر، وقيمة معنوية تتشكل من مجموع الذكريات التي تشير إلى مراحل عزيزة من عمرنا، وهذه القيم المضافة هي التي تشكل "النظير".

إن الذات في مرحلة التوتير الأولي لا تتحدد من خلال إرادة ومعرفة وقدرة واعتقاد، وهي الأدوات الضرورية لكل فعل ولكل كينونة، بل من خلال ما يسميه هيرمان باريت .H Parret " ميتاجهة"؛ ففي عرفه هناك إرادة دالة على الرغبة (ميتا جهة)، وهناك إرادة دالة على القصدية (جهة) ، هناك فاصل كبير بين الرغبة والإرادة. لذلك لا يشكل هذا الكائن في هذه المرحلة ذاتا بالمعنى الحصري للكلمة، بل يُعد، بشكل ما، كيانا قادرا على استقبال كينونة من خلال ظلال قيمة، أي من خلال حالة لا يحكمها استيثاق هو المسؤول عن الرابط الذي يجب أن يصل ذاتا بموضوع قيمة.

والتوتير مقولة مستعارة من فينومينولوجيا هوسيرل وتشير إلى توجه نابع من حقل التوترات المحسوسة، إنها قريبة من مقولة الاستهواء، من حيث إنها مكملة لها رغم أنه لا يجب الخلط بينهما: فالاستهواء يختص بالجسد المحسوس، في حين يتكفل التوتير بحقل التوترات التي يندرج ضمنها هذا الجسد. لذلك يتم الجمع بينهما في مقولة عامة يطلق عليها كريماص: "توترية استهوائية". إن التوتير، بعبارة أخرى، هو حالة لاحقة للاستهواء، أو هو تصرف في المادة الانفعالية وتوجيهها نحو التحقق. ولهذا السبب، فإنه مرتبط بالمستقبل " أي ما هو موجه نحو..."، ما هو موجود في تماس مع مآل هو الغاية من كل حركة استهوائية.

وقد توضح آليات الإدراك في الفينومينولوجيا الغايات الحقيقية من وراء الاستعانة بهذا المفهوم. فالتوتير مرتبط بالقصدية، والقصدية خاصية من خاصيات الوعي في الفينومينولوجيا (كل وعي هو وعي بشي ء ما)، فهي دالة على "قدرة الذهن على التوجه نحو الموضوع واستهدافه"، أو هو "قدرة الوعي في أن يكون وعيا لشيء ما". لذلك، فما يحدد الموضوع ليس وجوده في ذاته، بل باعتباره مستهدفا من خلال وعي، إننا "نقذف بالوعي داخل الظاهرة" كما يقول سارتر. وهذا بالضبط ما تشير إليه مقولة التوتير، بطريقتها الخاصة. فالتوتير، هو استهداف للكتلة الاستهوائية والدفع بها إلى التجسد في حقل من "التوترات" المرئية. وهذه التوترات هي البدايات الأولى التي تقوم عليها أشكال التركيب المسؤولة عن تشكل الأهواء في انفصال عن الاستهواء، واستنادا إليه في الوقت ذاته.

وبناء عليه، فإن الاستهواء، كما يشير إلى ذلك التعريف السابق، يخرج من دائرة الجسد الحاس لكي يتخذ حجما جديدا من خلال استقطاب حقل من التوترات هي الوجهة التي تسير نحوها الانفعالات، بلغة هوسيرل دائما. لذلك، يعتبر كريماص التوتير حركة مكملة للانفعال لا خالقة له، إنها حركة تختص بحقل منبعث من الاستهواء. لذلك يعد التوتير الممر الضروري لولادة الجهات (أرغب في، أعرف، أستطيع)، وهي الصيغ الأساسية التي تحدد علاقة الذات بعالمها (علاقة الإنسان بعالمه الخارجي)، فخارج هذه الجهات الأولية لا يمكن أن نتحدث عن ذات في العالم. وهو الممر الضروري أيضا لتشكل الذات من خلال أدوار باتيمية هي حاصل الاستثمار الانفعالي للكينونة فيما هو سابق على كل تجل (الذات المنفعلة التي تصرف انفعالها في دور

باتيمي: غضوب، بخيل، متحمس)، وستتجسد هذه الأدوار، في مستوى التحقق الخطابي، في شكل باتيمات(5) (أي الصفات الدالة على الغضب والبخل والحماس...).

ومع ذلك، فإن التوتير في حاجة إلى غطاء آخر لكي تقود العمليات التوجيهية التي يقوم بها إلى تشكل ذوات تتقاسم موضوعات أو تتصارع فيما بينها من أجل امتلاكها حصريا. ويتعلق الأمر بمقولة ثالثة في هذه السيرورة وهي "المآل" devenir. ومقولة المآل مركزية أيضا في تحليل الهوى لا من حيث مادته، بل من حيث امتداده "المستقبلي" وتشعباته. ويمكن النظر إليه باعتباره حاصل التوترات التي يأتي بها الانشطار الاستهوائي. فلا يمكن لهذا الانشطار أن يصبح دالا إلا إذا استُوعب ضمن "اتجاه"، أي ضمن غاية بعينها تمسك بممكناته وتحدد تطوراتها اللاحقة التي بها يتميز هذا الهوى عن ذاك.

وعلى هذا الأساس يُعتبر "المآل" انتقالا من حالة إلى أخرى"، أو هو "سلسلة من تغيرات الحالة"؛ وينظر إليه في تعريفات أخرى، ذات طابع فلسفي أو شبه سميائي، باعتباره مبدأ التغير المتصل، وِجْهة خالصة لا تتوقف عن النمو، حيث لا يتميز التغير "الإنساني" بعد عن التغير "الطبيعي""(6). وهذا معناه أن المآل مبدأ مدرج في كل مظاهر الوجود، فوجود الظواهر الإنسانية أو الطبيعية لا يمكن أن يستقيم إلا ضمنه. فكما أن الوليد ليس كذلك إلا من خلال إسقاط حالات مستقبلية تضم الصبا والشباب والكهولة والشيخوخة المتقدمة وما يليها، فإن الوقائع (كل الوقائع، بما فيها الوقائع النصية)، ليست كذلك إلا من خلال مبدأ المآل هذا.

إن الهوى، استنادا إلى ما سبق، حصيلة سيرورة لا نرى منها سوى تحققاتها. فالنسخ التي تضعها الممارسة الإنسانية بين أيدينا ليست سوى تقطيعات مخصوصة تتم داخل كون استهوائي وفق سيرورة تقود من المتصل الكلي، إلى حالات الانفصال التي تنبثق منها الدلالة. وهذه التقطيعات ذاتها لا تتم وفق مبدأ كوني يقابل بين الأهواء استنادا إلى الامتداد والكثافة والانتشار، بل يتم استنادا إلى "عتبات" هي مُنْتج ثقافي خالص.

هوامش

*-فقرات من المقدمة التي وضعناها لترجمة كتاب كريماص وفونتني : سميائيات الأهواء، من حالات النفس إلى حالات الأشياء، دار الكتاب الجديد ، بيروت 2010 : sémiotique des passions, des états des choses aux états d'âme

C S Peirce : Ecrits sur le signe , éd Seuil, Paris 1978, p84--2

C S Peirce : Ecrits sur le signe,p.93-2

3-ج . كريماص، ج . فونتني : سميائيات الأهواء ،من حالات الأشياء إلى حالات النفس، دار الكتاب الجديد، بيروت 2010 ، ص 69 .

J Fontanille, C Zilberberg : Tension et signification, éd Mardaga,1998, p.227 -4

5-اتيمات : pathèmes، العناصر الدالة على الدور الباتيمي من قبيل العلامات التي تدل على غضب الغضوب أو بخل البخيل.

6-ج . كريماص ، ج . فونتني : سميائيات الأهواء ،من حالات الأشياء إلى حالات النفس ، دار الكتاب الجديد، بيروت 2010 ،

صدر حديثا